الفصل الرابع

فرصة تاريخية لاحتلال جنوب سوريا

فى الاجتماع المذكور عاليا فى ٣١ يناير ١٩٥٤، قام موسى ديان بتقديم الخطوط العريضة لخطط الحرب التى وضعها. وتقول النقاط التى كتبها شاريت فى ذلك اليوم:

«خطة التحرك الثانية ضد تدخل السوريين ضد قيامنا بالصيد فى بحيرة طبرية... (إذًا ـ لثالث مرة)، بما أن هناك مشاكل داخلية فى سوريا، تعتدى العراق على هذه الدولة ونحن علينا التقدم [عسكريًا إلى داخل سوريا]، وتحقيق سلسلة من (الأمر الواقع)... النهاية الطريفة التى يمكن أن نستخرجها من كل هذا تتعلق بالاتجاه الذى يفكر به قائد القوات العسكرية. إننى قلق للغاية». (٣١ يناير ١٩٥٤، ٣٣٢)

obeikandl.com

فى ٢٥ فبراير ١٩٥٤، تمردت القوات السورية فى حلب على نظام أديب الشيشكلى.

«بعد الغذاء، انتحى بى لافون جانبًا وبدأ محاولات إقناعى: هذا هو الوقت المناسب للتحرك، هذا هو وقت التحرك إلى الأمام واحتلال المواقع عند الحدود السورية التى تقع عبر المنطقة المنزوعة السلاح. سوريا تتفكك. الدولة التى وقعنا معها اتفاقية الهدنة لم تعد موجودة. حكومتها على وشك السقوط وليس هناك قوة أخرى فى الأفق. بالإضافة إلى ذلك، العراق تحرك بالفعل إلى سوريا. هذه فرصة تاريخية، يجب ألا تضيع منا.

« ترددت كثيرًا فى الموافقة على هذه الخطة السريعة، ورأيت أننا سنكون على حافة هوة سحيقة من مغامرة كارثية. وسألت إن كان قد طلب منى أن نتحرك فورًا، وصدمت عندما أدركت أنه فعل ذلك. وقلت إن كان العراق سيتحرك بالفعل إلى داخل سوريا بجيشه، فإن ذلك سيكون تحول ثورى من شأنه... أن يبرر نتائج صعب الحصول عليها، ولكن فى الوقت الحالى ذلك يعنى خطرًا فحسب، وليس واقعًا. إنه حتى ليس واضحًا إن كان الشيشكلى سيسقط: قد يستمر فى السلطة. يجب علينا أن ننتظر قبل اتخاذ أى قرار. وكرر أن الوقت قيم وعلينا أن نتحرك حتى لا نفوت فرصة قد تضيع إلى الأبد، إن لم نتحرك. ومرة أخرى أجبت بأنه حسب الظروف الحالية لا أستطيع أن أوافق على مثل هذا التحرك. وأخيرًا قلت سنلتقى يوم السبت المقبل مع بن جوريون... ويمكن أن نستشيره حول تلك المسألة. رأيت أنه كان مستاء للغاية بسبب التأخير. إلا أنه لم يكن يملك إلا أن يوافق». (٢٥ فبراير ١٩٥٤، ٣٧٤)

فى اليوم التالى سقط نظام الشيشكلى بالفعل. وفى اليوم الذى تلاه، ٢٧ فبراير، كان شاريت حاضراً فى اجتماع حيث قدم كل من لافون وديان تقريراً إلى بن جوريون أكد أن الأحداث فى سوريا كانت ـ «عملية عراقية صرفة». واقترح الاثنان مرة أخرى وضع الجيش الإسرائيلى على الطريق. وافق بن جوريون، بعد أن أثاره التقرير بشدة. وقام شاريت مرة أخرى بالاعتراض، مشيراً إلى حتمية تنديد مجلس الأمن، وإمكانية استخدام (الإعلان الثلاثى) لعام ١٩٥٠ ضد إسرائيل، وهو ما يمكن أن يؤدى إلى «فشل يجلب العار». واعترض الثلاثة على أن «دخولنا [سوريا] سيكون مبرراً فى ضوء الوضع فى سوريا. إنه عمل دفاعى على منطقة حدودنا». وأنهى شاريت المناقشة بالإصرار على احتياجنا بحث المسألة مرة أخرى فى اجتماع وزارى، تحدد موعده فى صباح اليوم التالى.

«كسا وجه لافون تعبير من الكآبة. لقد فهم أن ذلك هو نهاية الموضوع». (٢٧ فبراير ١٩٥٤، ٣٧٧)

فى يوم الأحد ٢٨ فبراير؛ نشرت الصحف أن القوات العراقية لم تدخل سوريا. الوضع فى دمشق كان بالكامل تحت سيطرة الرئيس هاشم الأتاسى. وافقت الوزارة على موقف شاريت ورفضت مناشدة لافون القوية بألا نفوِّت فرصة تاريخية. قال لافون: «الولايات المتحدة على وشك أن تخوننا وتتحالف مع العالم العربى». علينا أن «نظهر قوتنا نبين للولايات المتحدة أن حياتنا تعتمد على هذه القوة، حتى لا يجرؤن على فعل أى شئ ضدنا». لقد كان انتصار رئيس الوزراء قصير العمر.

حتى ذلك الوقت، لم تكن الحدود السورية الإسرائيلية تمثل أى مشكلة للإسرائيليين. وعندما نشب التوتر، كان ذلك بسبب الاستفزازات الإسرائيلية بشكل أو بآخر، مثل أعمال الرى من الأراضى التى يملكها المزارعون العرب، والتى أدانتها الأمم المتحدة؛ أو عدوان مراكب الدوريات العسكرية على الصيادين السوريين الذين يقومون بالصيد فى بحيرة طبرية. لم يكن أى نظام سورى

ليستطيع الامتناع عن تقديم الحد الأدنى من الحماية لمواطنيه على الحدود ضد الهجمات الإسرائيلية، أو سلبهم الوسيلة التى يتعيشون منها، ولكن حكام دمشق لم يشعروا بالاستقرار الكافى الذى يمكنهم من خلاله أن يرون أنفسهم مضطرين إلى الدخول فى صراع كبير مع جارهم الجنوبى. لذلك كانت الاشتباكات بسيطة، وخاصة فصلية. لم يكن من الممكن إثارة مسألة الأمن بشكل يؤكد مصداقيته لتبرير برنامج توسعى، أو أى اعتداء آخر ضد سوريا.

بالرغم من ذلك، قامت الطائرات الحربية الإسرائيلية، فى ١٢ ديسمبر عام ١٩٥٤، باختطاف طائرة مدنية سورية بعد تحليقها، وأجبرتها على الهبوط فى مطار اللد. وتم التحفظ على الركاب وطاقم الطائرة، وتم استجوابهم لمدة يومين، إلى أن ثارت عاصفة دولية تحتج على العملية، مما أجبر الإسرائيليين على الإفراج عنهم. أثار الحادث غضب شاريت الشديد، وكتب إلى لافون فى ٢٢ ديسمبر يقول:

«يجب أن يكون الأمر واضحًا لك، بأننا لا نملك أى مبرر أيا كان للاستيلاء على الطائرة، وكان علينا الإفراج عنها فور إجبارها على الهبوط، وليس التحفظ على الركاب تحت الاستجواب لمدة ٤٨ ساعة. ليس هناك أى سبب يجعلنى أشك فى حقيقة التأكيدات الواقعية التى قدمتها وزارة الخارجية الأمريكية بأن هذا الفعل الذى قمنا به غير مسبوق فى تاريخ الممارسات الدولية... ما يصدمنى ويقلقنى هو ضيق أفق وقصر نظر قياداتنا العسكرية. ففيما يبدو أنهم افترضوا أن دولة إسرائيل يمكنها، بل يجب عليها، أن تتصرف فى مملكة العلاقات الدولية بناء على قوانين الغاب». (٢٢ ديسمبر ١٩٥٤، ٦٠٧).

وجه شاريت، أيضًا، اعتراضه إلى لافون بخصوص الحملة الإعلامية الفضيحة، والتى شك فى أنها كانت مستلهمة من المؤسسة الأمنية، وكانت

تهدف إلى إقناع الرأى العام بأن الطائرة السورية أوقفت وأجبرت على الهبوط لأنها انتهكت السيادة الإسرائيلية، وربما عرضت أمنها أيضا للخطر. «ونتيجة لذلك، لم يفهم الرأى العام لماذا تم الإفراج عن مثل هذه الطائرة، ومن الطبيعى أن يتصور بان الحكومة رضخت بلا مبرر». (نفس اليوم والصفحة)

فى ١١ ديسمبر، اليوم الذى سبق قيام إسرائيل بالقرصنة الجوية غير المسبوقة فى العالم كله، ألقت السلطات السورية القبض على خمسة جنود إسرائيليين داخل الأراضى السورية بينما كانوا يضعون أسلاك تنصت على شبكة التليفونات السورية. بعد شهر من تلك العملية، فى ١٣ يناير عام ١٩٥٥، انتحر أحدهم فى السجن. خرجت الصيغة الرسمية الإسرائيلية، مرة أخرى، تقول إنه تم اختطاف خمسة جنود فى الأراضى الإسرائيلية، وسحبهم إلى سوريا، وتعذيبهم. وكانت النتيجة أن ثارت مشاعر الإسرائيليين فى ثورة كبيرة، خاصة وأن تلك الأنباء وصلت بعد قرار الإدانة فى القاهرة ضد أعضاء الشبكة الإرهابية الإسرائيلية، والتى وصفت للرأى العام على أنها مكيدة ضد اليهود. وكتب رئيس الوزراء فى يومياته الشخصية يقول:

«لقد تم التضحية بصبى صغير من أجل لا شىء... والآن سوف يقولون إن دمه على يداى. إن لم أعط أمرًا بالإفراج عن الطائرة السورية [لأصبح لدينا رهائن و] لكان من الممكن إجبار السوريين على الإفراج عن الخمسة. ولكان الصبى... لا زال حيا اليوم.. لم يقم مغيرون سوريون بخطف جنودنا فى الأراضى الإسرائيلية كما أعلن المتحدث الرسمى العسكرى... بل لقد تسللوا إلى سوريا، ولم يحدث ذلك بطريق الخطأ، بل من أجل وضع أسلاك تنصت على خطوط التليفون السورية... لقد تم إرسال الشباب بدون أن يكون معهم شخص يملك الخبرة، لم يحصلوا على أى تعليمات حول أسلوب التصرف فى حالة الفشل، والنتيجة كانت أنهم انهاروا مع أول استجواب، واعترفوا بالحقيقة كلها... ليس

لدى أى شك فى أن الصحافة والكنيست سوف يعلنون بأنهم تعرضوا للتعذيب. ولكن على الجانب الآخر، من الممكن أن يكون الصبى قد انتحر لأنه انهار خلال الاستجواب، واستوعب، لاحقا، الكارثة التى لحقت بزملائه بسببه، والذى فعله فى حق الدولة. وهناك احتمال أن يكون زملاؤه قاموا بلومه بشدة فيما بعد. على أية حال، من المحتمل أن يكون ضميره قد دفعه إلى أن يأخذ تلك الخطوة البشعة». (٣ يناير ١٩٥٥، ٦٤٩)

« إيسر [هاريل رئيس (الشين بيت) فى ذلك الوقت] حذرنى مما يمكن أن يحدث لى شخصيّا نتيجة للانتحار. كان هناك هجوم مسموم ينظم ضدى... من الضرورى الاعتناء بما يحدث فى الجيش ومنع التمرد غير القانونى. (١٤ يناير ١٩٥٥، ٦٥٣). من الواضح أن نية ديان.. هى الحصول على رهائن [سوريين] من أجل الحصول على الإفراج عن معتقلينا فى دمشق. لقد سيطرت على ذهنه فكرة أنه من الضرورى أن يكون لدينا رهائن، ولم يتنازل عنها». (١٠ فبراير ١٩٥٥، ٧١٤)

بعد ١٩ عامًا، أمر ديان، وزير الدفاع فى حكومة جولدا مائير فى ذلك الوقت، قواته بالتحرك إلى مدرسة فى معالوت، بغض النظر عن الخطر الذى قد يتعرض له المدنيون الإسرائيليون بمن فيهم الأطفال، بهدف واحد هو منع الإرهابيين الفلسطينيين من الحصول، عبر اختطاف رهائن، على الإفراج عن أحد زملائهم الفلسطينيين الذى سجن وعذب تحت الاحتلال العسكرى للضفة الغربية وقطاع غزة. فى تلك الحالة، كما فى حالات مماثلة، أعلنت إسرائيل فى حملة صهيونية عنيفة ومسمومة، ترددت أصداؤها فى أنحاء الإعلام الغربى، بأن محاولة منظمة التحرير الفلسطينية للإفراج عن المسجونين من خلال اختطاف رهائن مسألة غير محتملة، مسألة همجية ومتوحشة وقاتلة وإرهابية. متى أطلقت وسائل الإعلام نفسها تلك الحملة على موسى ديان صفة الإرهابى؟

لم تقتصر المؤامرات الإسرائيلية ضد سوريا فى الخمسينات على التوسع ومشاريع إرهابية. فى ٣١ يوليه عام ١٩٥٥، أبلغ جدعون رافائيل، أحد كبار مساعدى وزير الخارجية، شاريت عن «اجتماعين مثيرين» عقدهما مع لاجئين عرب فى أوروبا. كان أحد تلك الاجتماعات مع حسنى البرازى رئيس الوزراء السورى السابق:

«حسنى يريد العودة إلى السلطة، وهو على استعداد لقبول مساعدة من أى شخص: من تركيا، مقابل دخول سوريا فى المستقبل فى معاهدة أنقرة ـ بغداد [حلف بغداد]؛ ومن الولايات المتحدة، مقابل تحالف سوريا فى المستقبل مع الغرب، من إسرائيل، مقابل اتفاقية سلام. (٣١ يوليه ١٩٥٥، ١٠٩٩).

لكن السلام كان آخر شىء تهتم به إسرائيل. مساندة إسرائيل تتطلب ثمنًا آخر.

«فى غضون ذلك الوقت يقول لنا إعطى ـ إعطى: المال للصحف، المال لشراء شخصيات، المال لشراء أحزاب سياسية. جدعون [اقترح له...] هو نفسه يملك أراضى كثيرة، فلماذا لا يجمع عددًا من ملاك الأراضى ويبدأ خطة كبيرة لتوطين اللاجئين... حسنى يستمع، يقول إنها فكرة رائعة... ولكن بعد استعادة السلطة فحسب، وإلى أن يستعيد السلطة فهو فى حاجة إلى الدفع مسبقًا». (٣١ يوليه ١٩٥٥، ١١٠٠).

بعد مرور عام، وقبل أسبوع من سقوطه النهائى من الحكومة، حصل شاريت على تقرير أخير عن أنشطة إسرائيل التخريبية فى سوريا من مستشاره فى الشئون العربية، «جوش» بالمون:

«تمت تقوية اتصالاتنا مع [أديب] الشيشكلى [الديكتاتور السورى المنفى بعد الإطاحة به فى عام ١٩٥٤]. ولقد تم وضع الخطوط

العريضة لعمل مشترك بعد عودته الى السلطة (إن عاد!). ولقد اتفقنا على منهج محدد للاتصال بالولايات المتحدة بخصوص تلك المسألة». (١٢ يونيه ١٩٥٦، ١٤٣٠)

لم تتبلور حقيقة أى من تلك «الفرص التاريخية» فى ذلك الوقت، كما أن إسرائيل، من جانبها، لم تتخل عن خططها من أجل صناعة نظام تابع لها فى دمشق. وفى لبنان، تأخر عشرين عامًا، تنفيذ مشروع صناعة نظام تابع لها والذى تم التفكير فيه منذ عام ١٩٥٤[٥].

* * *

obeikandl.com